٣ـ كلمة الدكتور شاكر الفحام

السيد رئيس المجمع ، السادة المجمعيون ،

السيد الأستاذ محمود المسعدي وزير الثقافة في الجمهورية التونسية الشقيقة ،

السادة الوزراء ، أيها الأخوات والأخوة الأعزة .

أقف في مقامي هذا يُظلّني التهيب ، أذكر بالتوقير والتجلة أولئك الأفذاذ الخالدين الذين وطّؤوا لنا الطريق ودمّثوا صعابه .

ظهروا والناس يخبطون في ظلماء ، تتقاذفهم السبل ، وقد أحيط بالعربية المبينة ، فإذا هي غريبة بين أهلها ، لا يكاد يفصح بها لسان ، فكانوا كإشراقة الفجر في يوم ربيع .

أتمثلهم أمام ناظريّ ، وقد ركزت الراية العربية في دمشق ، يوم الثلاثين من ايلول ١٩١٨ معلنة ميلاد الدولة العربية الجديدة . فهبوا يتنادون ، والهمة ملء برودهم ، يجيبون داعي العربية ، دائبين في خدمتها ، لا يملّون العمل ولا يعرفون الكلل : أنشئت الشعبة الأولى للترجمة والتأليف في ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨ فكانوا نواتها الحية ، نمت فأنبتت النبات الحسن ، فلما قام ديوان المعارف في ١٢ شباط ١٩١٩ مقامها بذلوا وجهدوا ، حتى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أذن الله بظهور المجمع مستقلاً في الثامن من حزيران ١٩١٩ بفرسانه الثانية ، فمضوا يشقون طريقهم صعداً ، لا تثنيهم عقبة مهما صعبت ، ولا يصدّهم حاجز مهما علا : أحيوا المدرسة العادلية الكبرى لتكون مقراً لمجمعهم إيذاناً بهمة الإحياء الكبرى التي ينهضون بهـا ، وأخلصوا لما انتدبوا له : مسحوا عن وجه العربية ما علق به ، ونزّهوا العربية عن كل ما يتخوّن جمالها.

إنّا إذا حُطْمَةٌ حَنَّتْ لنا وَرَقاً نمارسُ العُودَ حتى ينبت الورقُ

لقد صدقوا العهد وأوفوا بالوعـد وعملوا ليلهم ونهارهم لا يفترون ، لله أبوهم ! جروا في ميدان العربية فبرّزوا ، وتغلغلوا في شعاب الكلام فأبانوا عن جمـاله ، وبذلوا حتى أنجحوا ، وعبّدوا الطريق لاحباً ناهجاً لمن جاء بعدهم ، وانضم إليهم إخوان لهم ، لحقوا بهم في مسيرتهم ، يشدّون من أزرهم ، ويقتفون خطاهم ، فاستد الساعد ، وتراءت العربيـة بهيجة ، « كالشمس يوم طلوعها بالأسْعُد » تختال بأثوابهـــا القشيبة ، مزهوة من الحسن . نادوها فلبت من قريب ، لم يستعص عليها شيء ، فإذا الناس يقرؤون صنوف العلوم بلسان عربي مبين ، لا عجمة فيه ولا رطانة ، يبهر بحسنه « مثل وشي اليمنة الحبرة » ، وتداول الراية رجال بعد رجال ، حراص على الأمانة ، يكمل لاحق ما بدأه سابق ، وهـــا هو ذا المجمع يتعالى شامخ الذرا ، دعائمه أعزّ وأطول ، يستقبل عامه السادس والخمسين لم تهن قوته ، ولا لانت قناته ، ماضياً يجري على غلوائه ، يستمد من قدسية هذه اللغة المباركة عزماً لا يفلّلُ حدّه .

في صورته ملامح نهضتنا العربية الحديثـة ، فهـــو أول مؤسسة ثقافية أرست الدولة العربية قواعدها ، فنسج لها من حلل العربية الخالدَ الباقيَ على الدهر ، زين به وجه الدولة وأعاد إليها لسانهـا ، وأزاح عنها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غربتها ، وما زال يدُّ العربية بكل حاجها من كلم ومصطلحات لمستحدثات العصر ، لتظل العربية اللغة الفتية الناضرة على تطاول الزمن ، تحمل إرث الأجداد : علومهم وآدابهم ، وتعبر عن أفكار العصر : علومه وآدابه .

وأقرأ سيرة المجمع ، وأقلبُ صفحاته البيض النواصع ، فأشعر بالاعتزاز أن يقتدر المجمع — وكان يعاني من القلة والضنك ما يعاني — على صنع ما صنع ، ولست أقوى أن أعدد أياديه ولا من همي أن أعد منها ، ولكني أقف أمامها مكبراً لأولئك الرجال الأمجاد ، معجباً بسيرتهم ، رجال لو احتفلت الدنيا ما تزينت إلا بهم ، أما من قضى منهم ولقي وجه ربه فسقى الله أجداثهم الطاهرة صوب رحمته ، ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً .

يبلى الفتى في قبره وفعاله غضٌّ جديد

وليبارك الله أعمال الباقين ، ويشد من عضدهم ، ويفسح لهم في أعمارهم ليؤدوا رسالة العربية أحسن ما يكون الأداء ، وليكونوا الحفظة لها ، وليسلموا الأمانة إلى الأمناء من بعدهم كما تسلموها ممن سبقهم ، ولتتألق العربية وضاءة مشرقة أبد الدهر .

وإن مما يثلج الصدر أن مجمعنا لم يبق وحيداً في الساحة ، فقد رفده في عمله مجمعا القاهرة وبغداد ، وجامعات الوطن العربي التي ارتضت العربية لساناً علمياً لها ، وفي طليعتها جامعات الجمهورية العربية السورية ، فقطعت بالحجة الفالجة مزاعم المكابرين ، وأخرست ببيانها الناصع ألسنة المرجفين .

السيد رئيس المجمع

تلح عليَّ ذكرى قديمة حبيبة ، حبستها النفس ضناً بها ، تلك هي ذكرى زيارتي الأولى لمجمع اللغة العربية ، وألتمس العذر أن استجزت قص خبرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كنا ، ونحن في حمص ، أيام الدراسة الثانوية ، نتسقط أخبار المجمع ومجلته ، ونستمع إلى أحاديث رفاق لنا ، يدرسون بدمشق ، عن دار الكتب الظاهرية وما حوته خزائنها من أعلاق الكتب النفيسة المخطوطة والمطبوعة ، وكنا نتشوف إلى اليوم الذي يتاح لنا فيه أن نزور دمشق لنقف في رحاب الظاهرية ومجمع الخالدين .

كان الفضل كل الفضل في تعلقي بالمجمع والظاهرية ، وفي تحبيب الخزانة العربية إليَّ ، يعود إلى أستاذيَّ الكبيرين : الأستاذ المرحوم عز الدين التنوخي ، طيب الله ثراه وبرّد مضجعه ، والأستاذ عبد الهادى هاشم ، درست عليهما فكانا لي خير معلمين ، أرشداني إلى تراث الأجداد ، وأخذا بيدي ، وبثا في قلبي حب العربية والتعصب لها . فرحم الله أبا قيس ، وأثابه ، وشكر الله للأستاذ عبد الهادي هاشم ومد في حياته ، وجزاهما على ما قدماه للعربية الجزاء الأوفى .

ثم تحقق الأمل يوم أبلغت أن قد قبلتُ بثانوية دمشق (جودت الهاشمي الآن) لدراسة البكالوريا الثانية ـ فرع الرياضيات ـ وتملكتني فرحة غامرة ، أحقاً أني سأعيش بدمشق حيث المكتبة الظاهرية والمجمع العلمي العربي ، وجئتُ دمشق طالباً داخلياً ، ونعمت بالتردد على الظاهرية أم المكتبات وملاذ التراث ، مرة بعد مرة ، كلما واتت الفرصة ، ثم بلغنا النبأ . أن الأستاذ الكبير محمد كرد علي رئيس المجمع يريد أن يحاضر في المجمع ، وجاهدتُ ـ علم الله ـ ليتاح لي أن أحضر واستمع .

كان ذلك في أمسية يوم من أيام أيار ١٩٤١ ، ما زلت أذكره وكأنه حدث أمس ، وكيف أنسى ، وأنا المتشوق لأرى تاج الخالدين وأنقع ظمأً تطاولت أيامه ، والذاكرة آنذاك حية متوقدة ، وعودُ الشباب رطيب ، والحكمة تقول : العلم في الصغر كالنقش في الحجر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي هذه القاعة نفسها جلسنا نستمع للشيخ ـ سقته غوادي المزن ـ وهو جالس أمام منصة صغيرة في زاوية القاعة ، يتحدث عن (غوطة دمشق) بصوت هادىء ، يتوقف أحياناً وعينه أبداً على القرطاس . لم يكن المحاضر الذي تخيلته ، المنطيق المفوّه ، ذا الصوت الجهوري ، المتدفق كبحر ، ولكني نعمت بحديث الشيخ ، وألفت نغمته الرتيبة وسكونه في جلسته ، فعل عالم محاضر ، واحتفظت بحديثه رطباً غضاً في نفسي حتى اليوم ، ما ذكرته وذكرت فرحتي به إلا تمثلت بكلمة الأعرابي في حديث من أحبها :

وحديثها كالقطر يسمعه راعي سنين تتابعت جدبا
فأصاخ يرجو أن يكون حيا ويصيح من فرح هيا ربا

وبعد ، فإني أتقدم إليكم ، يا سادتي المجمعيين ، وأنا عاجز أن أفيكم حقكم من الشكر والحمد ، فسحتم لي مكاناً في ندوتكم الخالدة ، ونوهتم بي حين آثرتموني ، ولست بالسابق الموفي على الغاية ، وأرجو أن أعان على ماندبت إليه .

وأتلفت بوجهي إلى السادة الخالدين الذين شهدوا جلسة المجمع في العاشر من تشرين الثاني ١٩٧٠ فكرموني بانتخابهم وأجلّوني باختيارهم ، أرفع إليهم تحيتي الخالصة الطيبة اعترافاً بفضلهم عليّ ، وأصفي الشكر أستاذي وأخي الأستاذ عبد الهادي هاشم الذي أسبغ عليّ من أدبه وخلقه ما عظّم به صغيري ، وكثّر به قليلي .

ثم أعود فأستمطر سآبيب الرحمة على الراحلين من الخالدين بعد جلسة المجمع التي تم فيها انتخابي ، وكنت أرجو أن يسعدني الحظ بلقائهم في هذا المحفل وهم المرحومون الدكتور محمد سامي الدهان والدكتور صلاح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدين الكواكبي والأستاذ عارف النكدي ، وعزائي أنهم ببلائهم وإخلاصهم وذيادهم عن الفصحى كانوا حديثاً حسناً لمن روى .

سادتي المجمعيين :

يؤسفني أن تواترت عليّ أعمال لاتنتظـر ، شغلتني عن التهيؤ لحفل الاستقبال في موعده وأكرهتني أن أرجئه مرة بعد مرة ، وقد أبى عليّ السيد رئيس المجمع أن أمضي فيما أنا فيه وعزم عليّ فلم يسعني إلا أن ألبي رغبته ، على تزاحم الأعمال ، ولم أعـــدّ للأمر عدته ، ولا اتخذت لـه أهبتـه .

وحفلُ الاستقبال من سنن المجمع العريقة ، أشار به الأمير شكيب أرسلان — وما أكثر مآثر الأمير ومحامده في خدمة العرب والعربية — فاستحسنه المجمع وجرى عليه منذ عام ١٩٢٢ .

وتقتضيني سنة المجمع — وأجْمِلْ بها من سنة — أن أتحدث عن الراحل الخالد سلفي في هذا المقعد : الأمير مصطفى الشهابي .

وأستميحكم العذر إن لم أقدم إليكم ترجمة ضافية نقدية ، وإنما هي شذرات اخترتها ، أجزأتني في الدلالة على الرجل وعصره وعلمه ، واكتفيت بها بعد أن سبقني سابقون كتبوا عن الأمير صفحات حلوة ناصعة : كتب الأستاذ عدنان الخطيب نائب رئيس المجمع كلمته الحافلة في ذكرى الفقيد بعيد وفاته فاستقصى وأوعب ، وقيلت كلمات تحدث بها عارفوه في حفل تأبينه الذي أقامه مجمع القاهرة في التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٦٨ ، وللأمير ترجمة ذاتية في المجمع تجمع بين التدقيق والاستقصاء ، أرجو أن أوفق لنشرها على صفحات مجلة المجمع التي أحبها الأمير ، ففيها غنية للمستزيد .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ينتمي الأمير مصطفى الشهابي إلى أمراء بني شهاب القرشيين المخزوميين، الذين استوطنوا وادي التيم في المائة السادسة للهجرة.

ولد في أول تشرين الثاني سنة ١٨٩٣ بمدينة حاصبيا قصبة وادي التيم ومقر الشهابيين القديم، لسبع عشرة سنة خلت من حكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) «وكان عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي ولدتُ وترعرعتُ في أيامه، من أفظع عهود الظلم والقسوة والرشوة والاستبداد، فقد كانت الأفواه مكومة، والأقلام محطمة».

وكانت مدينة حاصبيا مسقطُ رأس الأمير مركز قضاء حاصبيا بقراه التسع عشرة، وترتبط إدارياً بلواء الشام (دمشق) أحد الألوية الأربعة التي تتألف منها ولاية سورية آنذاك(١).

عاش الشهابي في حاصبيا سنواته العشر الأولى، دخل مدرسة الحكومة الابتدائية في السادسة من عمره، فدرس فيها مبادىء القراءة والكتابة والقرآن والحساب والجغرافيـة، ثم انتقل في سن التاسعة إلى المدرسة الكاثوليكية ببلدته فتعلم مبادىء الفرنسية. ولما بلـغ العاشرة من عمره(١٩٠٣) قدر له أن يغادر حاصبيا، فقد كان أبوه محمد سعيد بن جبجاه الشهابي موظفاً في مالية ولاية سورية، نقل عمله إلى مدينة بعلبك مركز قضاء بعلبك بقراه الست والسبعين، والمرتبطة إدارياً بلواء دمشق، فصحب معه ابنه إليها.

ولئن قدر للشهابي أن يفارق بلدته حاصبيا وهـو غض العـود لين الإهاب لم يجاوز العاشرة من عمره، إنَّ صورتها الجميلة لم تفارقه، ظلت منقوشة في صدره تملأ عليه نفسه، لم تزدها رحلاته وأسفاره، على تعددها

(١) الألوية الأربعة هي: لواء الشام (دمشق)، ولواء حماة، ولواء حوران ولواء الكرك (معان)، وكانت مدينة دمشق مركز ولاية سورية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتنوع ماشاهد فيها ، إلا جدة وتألقاً . كان يذكر دائماً ، بالحب والشوق ، تلك المدينة الغافية في حضن جبل الشيخ ، حرمون ، جبل الثلج[1] ، يحنو عليها بجناحه الغربي ، وهي تتيه مزهوة ، بمدرجها الجبلي الذي حبته الطبيعة بأجمل هباتها وهداياها ، وتغسل رجليها بمياه الحاصباني العذبة الرقراقة ، تزهر بيوتها البيض ، تحفها من حولها جنان ذات بهجة ، فتذكر بقول الأوسية وقد سئلت : أي منظر أحسن ؟ فقالت : « قصور بيض في حدائق خضر » . وهل يقوى أن ينسى مسرح طفولته ومرابع صباه ؟ .. كان وهو يتحدث عنها يكاد يبسطها تامة بين يديك ، يجمع لك ماضيها وحاضرها ، يفتنك في الوصف ، حريصاً ألا تفوتك صغيرة من دقائق جمالها . يثب الفرح من كلماته وهو يروي قصة صباه ، تراه قافزاً في الماء ، أو منطلقاً وراء صيد ، وكأنه يردد :

أحبُّ بلاد الله مابين منعج ... إليَّ وسلمى أن يصوب سحابها

بلادٌ بها نيطت عليَّ تمائمي ... وأول أرض مس جلدي ترابها

---

(١) جبل الشيخ : جبل شاهق عالي الذرا ، في جنوبي دمشق إلى الغرب ، ويسمى في النصوص القديمة : حرمون . يبلغ ارتفاع أعلى قممه ٢٨١٤ م . (شارة حرمون) ؛ وتقوم على مقربة منها بقايا قصرشبيب التبعي . اطلق عليه العرب اسم جبل الثلج ، لأن الثلوج تكلل هامته « والثلج على رأسه كالعمامة » . قال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر خاليه من غسان :

ملكا من جبـــل الثلج إلى ... بجانبي أيلة من عبد وحـــر

ثم كانا خير من نال الندى ... سبقا الناس يإقســـاط وبر

ولما حل جند دمشق كورة البيرة في الأندلس ، سموا غرناطة : دمشق ، لأنها أشبه شيء بها ، وسموا جبل شلير (بلفظ التصغير) القائم في جنوبي غرناطة المطل عليها : جبل الثلج ، وشبهوه بالشيخ إذ تردى بالثلج وتعمم ، ولبس البرنس الأبيض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا ينسى أن يختم كلماته بأن حاصبيا قد أطلعت عالمين كبيرين هما الفارسان : فارس نمر (١٨٥٥ - ١٩٥١) في مصر ، وفارس الخوري (١٨٧٧ - ١٩٦٢) في الشام ، ولقد عززهما رحمه الله بثالث بلغ في فنه الغاية .

قضى الشهابي ببعلبك سنة واحدة ، دخل فيها مدرسة (المطران) ، وانتقل بعدها بانتقال والده إلى معلقة زحلة مركز قضاء البقاع بقراه التسع والخمسين ، وأحد الأقضية التسعة التي يتألف منها لواء الشام[1] ، فالتحق فيها بمدرسة الموارنة وهي مدرسة حسنة التعليم كان من معلميها موسى نمور الذي صار في سنة ١٩٢٦ رئيساً لمجلس النواب اللبناني .

مكث الشهابي في مدرسة الموارنة سنة ليهبط بعدها دمشق في الثانية عشرة من عمره (١٩٠٥) فدخل المدرسة البطريركية الكاثوليكية وقضى فيها سنتين درس فيها العربية والفرنسية ومبادىء العلوم العصرية .

أتاحت هذه النشأة للشهابي أن يبدأ تعلم اللغة الفرنسية صغيراً ، في أيام صباه ، وتابع تعلمها فكانت خير زاد له في شبابه حين سافر من بعد إلى فرنسا للتخصص ، وفي كهولته حين بدأ الكتابة والتأليف ووضع المصطلح العلمي .

ولكن مايعنينا هنا هو أن نشير إلى جانب هام خلفته هذه الدراسة في نفسه ، ذلك أن الشهابي الطالب قد رأى عياناً غلوّ القوم في العناية بلغتهم ، وحماستهم لتعليمها ، وما كانوا يصطنعون من أساليب لتعويد الطلبة على الحديث بها وإجادة نطقها . « كنا نجبر على التكلم بالفرنسية ، حتى في

(١) الأقضية التسعة التي يتألف منها لواء الشام (دمشق) هي : قضاء الشام ، قضاء بعلبك ، قضاء البقاع ، قضاء النبك ، قضاء دوما ، قضاء وادي العجم ، قضاء حاصبيا ، قضاء راشيا ، قضاء الزبداني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

زمن الدولة العثمانية ، وكل من كان يتكلم بغير الفرنسية كان يغرم غرامة نقدية ، وقضية الخشبة المسماة : علامة ، التي تعطى للتلميذ المتكلم بغير الفرنسية قصة مشهورة ، وحفزه ذلك أشد الحفز من بعد للدفاع عن العربية الفصحى والاعتزاز بها ، والدعوة لنشرها بين طبقات الشعب ، كان يحلم باليوم الذي تسود فيه الفصحى المعربة المبينة ، وكان يرمضه أن يشهد غفلة الأمة عن لغتها ، وتغافلها عن النزعات الشعوبية التي تشجع اللهجات العامية وتبيت الشر لهذه اللغة الخالدة التي حفظت على الأمة العربية وحدتها ، وظل حيانه كلها مشرع القلم ذياداً عن الفصحى التي دفعت عن الأمـــة العربية غائلة التجزئة والشتات : « وبعد ، ان قوميتنا في خير مادامت لغتنا الفصحى في خير » .

غادر الشهابي دمشق وبلاد الشام وهو في الرابعة عشرة من عمره (١٩٠٧) ليسافر إلى الآستانة ، بصحبة شقيقه عارف الذي كان يكبره بأربع سنين ، والذي كان يدرس في المدرسة الملكية العالية بالآستانة ، والتحق الأمير مصطفى بمدرسة إعدادية فرنسية في حي (قوم قبو) تشرف عليها جمعية دينية مسيحية تدعى بالفرنسية Augustins de l'Assomption

وكان أخوه عارف من دعاة القومية العربية المتفانين في سبيلها ، لم يكتف بمتابعة دراسته في المدرسة الملكية العالية ، بل جمع إليها القيام بعبء تدريس حلقة من الشباب العرب في الآستانة علوم اللغة العربية وتاريخ العرب وحضارتهم ، وكان الأمير مصطفى أحد رواد هـــذه الحلقة : تلقى على أخيه عارف ، واستمع إلى أحاديثه في القومية العربية ووسائل النهوض بالأمة العربية .

وامتدت إقامة الشهابي في الآستانة سنتين فتحتا عينيه على أشياء جديدة كثيرة ، ومدت من آفاق رؤيته ، دخل الآستانة والسلطان عبد الحميد يتابع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سياسة الاستبداد والقهر ، وشاهد بعد ذلك الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) وقد أطاحوا بالسلطان وأمسكوا بزمام الأمور فتظاهروا للعرب بالمودة ، ولاينوهم بادىء ذي بدء ثم مالبثوا أن قلبوا لهم ظهر المجن ، وأنكروا عليهم كل حق ، ونهجوا سياسة طورانية مغرقة في تعصبها وعنصريتها ، حاولوا أن يطمسوا بها حضارة العرب ومجدهم ، وأن يمحوا لغتهم ، وحفظ فيما حفظ تغنيهم بمجد جنكز خان وبطولاته ، يريدون أن يقرنوه ويعدلوه بالرسول العربي الكريم .

وكانت تسري إليه همسات الشبان العرب من قومه ، وهم يتحدثون عن أمتهم وماضيهم المشرق وما يتطلعون إليه في غدهم : كانت أحلامهم عراضاً ، وآمالهم بعيدة ، يتشوفون باللهفة والشوق إلى قيام الدولة العربية الواحدة ، يرونها قريبة منهم رأى العين ، « وكنت في تلك الأيام ، أي بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٩ تلميذاً في اسطنبول ، ولم تكن سني تجيز لي الاشتراك في أحاديث هؤلاء الشبان ، ولكنني كنت أسترق السمع ، وأصغي إلى تلك الأحاديث ، وقد علق بذهني ما تأكدته بعد سنين وهو أن اليقظة القومية كانت قد سرت إليهم جميعاً » ، « كان يهمس أحدنا في أذن أخيه قائلاً : أترى يتاح للأمة العربية شاعر قومي يوقظ منها النيام المسبتين والكسالى الخادرين » .

أنهى الأمير عارف دراسته في الآستانة عام (١٩٠٩) وعاد إلى دمشق وبصحبته الأمير مصطفى ، وكان قد أنهى دراسته في المدرسة الاعدادية الفرنسية ، فدخل المدرسة السلطانية الثانوية (مكتب عنبر) بدمشق ، كان آنذاك في السادسة عشرة من عمره ، ولبث في المدرسة سنة واحدة ظل يذكرها بمرارة وأسى : « أتذكر أني درست سنة واحدة في المدرسة الثانوية الحكومية بدمشق ، وهي سنة ١٩٠٩ ، فكان مدرس العربية رجلاً تركياً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شذا شيئاً من لساننا ، وهو لايفرق بين المذكر والمؤنث ، ويتكلم العربية بلهجة تركية سقيمة ، وكان يدرسنا لساننا بكتاب تركي لتعليم اللغة العربية » .

وشاء الحظ أن يأخذ بيد الشهابي ، تألفت بدمشق عام ١٩١٠ جمعية من كبار رجال الفيحاء ومفكريها سميت « جمعية البعثات العلمية » فاختارت لدراسة العلوم الزراعية ثلاثة من نابهي الطلاب هم : الأمير مصطفى الشهابي والأستاذ عز الدين التنوخي وعبد الغني الشهبندر ، وذهب الطلاب الثلاثة إلى فرنسا والتحقوا بالمدرسة المهنية في مدينة (شالون ـ سور ـ سون) ، وحصل الشهابي بعد سنة دراسية على شهادة الدروس الابتدائية العليا ليدخل من بعد مدرسة غرينيون الزراعية العالية(١) ، قضى فيها ثلاث سنين ليتخرج منها في الحادية والعشرين من عمره (١٩١٤) مهندساً زراعياً .

وليس من همي أن أشير إلى شتى المؤثرات العلمية والأخلاقية التي تلقاها في فرنسا وإنما أكتفي بالإشارة إلى صلته بدعاة القومية العربية الذين قصدوا باريس ، وأسسوا جمعية (العربية الفتاة) ، كان يتردد عليهم ويستمع إليهم ، ثم كان شهوده المؤتمر العربي بباريس في حزيران عام ١٩١٣ ، لم يتجاوز في عمله نطاق هذه الدائرة من الصلة ، فقد كان بطبعه معتدلاً يؤثر متابعة الدراسة ، والنجاح فيما قصد له ، تحدث عن المؤتمر العربي الذي شهده بباريس فقال : « وكانت مهمتي فيه أنا ولفيف من الطلاب الرياضيين بسيطة ، لم تتعد التهيئة ومراقبة الأعداء وحفظ النظام » .

وغادر الشهابي باريس في صيف ١٩١٤ إلى فروق . عاصمة بني عثمان ، وتقدم إلى فحص شهادة التعادل العثمانية ، أسوة بخريجي المدارس الطبية

(١) مدرسة غرينيون : مدرسة زراعية وطنية ، افتتحت في عام ١٨٢٦ في قصر شيد أيام لويس الثالث عشر ، بقرية ثيفرفال ـ غرينيون (قرية صغيرة في منطقة فرساي) ، وهي اقدم مدرسة من نوعها في فرنسا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والحقوقية الأجنبية ، ليكون له الحق ببلوغ المناصب العالية في الدولة ، فنجح في فحصه .

وشبت الحرب العالمية الأولى ، واضطر الشهابي أن يلتحق بصفوف الجيش العثماني وتقلب في أعمال عدة : بدأ فدخل المدرسة الحربية في اسطنبول مرشحاً لرتبة ضابط احتياط في المشاة ، ثم التحق بمدرسة البرق والهاتف الحربية في قصر « يلدز » ليقضي فيها ستة أشهر ، يتخرج بعدها برتبة وكيل ضابط احتياط ، ويعين قائد فصيل في سرية البرق في القدس ، لينقل من بعد ترجمانا في رهط البرق واللاسلكي بدمشق ، حيث حاز رتبة ملازم ثان احتياط ، وحلت سنة ١٩١٦ بكل مآسيها ، فازدادت المجاعة في الشام ، ومن أجل مواجهة ذلك أنشأت الحكومة العسكرية سرايا زراعية ، وعين الشهابي قائداً لسريتين في مرج ابن عامر ثم في بيسان ومجدل طبرية ، فقام بتجارب زراعية علمية .

وفي سنة ١٩١٨ عين مديراً لزراعة الجيش بدمشق ، وكان جمال السفاح قد غادر الشام .

ولما انحسر سلطان الترك عن بلاد الشام وقامت الحكومة العربية في سنة ١٩١٨ ، بدأ الشهابي حياته الحكومية : شغل منصب مدير الزراعة والحراج خمس سنين (١٩١٨ - ١٩٢٣) ثم مدير أملاك الدولة إحدى عشرة سنة (١٩٢٣ — ١٩٣٤) ثم مدير الاقتصاد الوطني (١٩٣٥) ليتولى من بعد وزارة المعارف (١٩٣٦) ، واختير واحداً من أعضاء الوفد السوري المفاوض لمعاهدة (١٩٣٦) [1] ، ثم أصبح محافظ حلب (١٩٣٧ -

(١) كان الوفد السوري المفاوض لمعاهدة ١٩٣٦ مؤلفاً من ستة أعضاء هم السادة : هاشم الأتاسي رئيس الوفد ، وفارس الخوري ، وجميل مردم ، وسعد الله الجابري ، ومصطفى الشهابي ، وإدمون حمصي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٩٣٩) ، وأسـندت إليه بعد ذلك وزارة المالية ووزارة الدولة للمالية والاقتصاد الوطني (١٩٤٣) ثم تسلم محافظة اللاذقية (١٩٤٣ - ١٩٤٥) فالأمانة العامة لرئاسة مجلس الوزراء (١٩٤٥) وعاد فأصبح محافظاً لحلب للمرة الثانية (١٩٤٦ — ١٩٤٧) فمحافظاً للاذقية للمرة الثانية (١٩٤٨ - ١٩٤٩) فوزيراً للعدل (١٩٤٩) وكان آخر ماوليه منصب وزير مفوض فسفير لسورية في مصر (١٩٥١ — ١٩٥٤) .

* * *

لعل أظهر صفات الفقيد الجد في العمل ، كان مولعاً بالقراءة ، والنظر في الكتب ، جلداً على المطالعة والتأليف ، يحب البحث ، ويوالي الدرس ، لايشغله عن ذلك شيء مهما جلّ ، ومن أقواله : « إذا عاش المرء عيشة منتظمة استطاع أن يطالع أو يؤلف بمعدل ساعة أو ساعتين في كل يوم ، مهما تكن مهنته المعاشية شاقة » .

وقد هيأت له مناصبه الأولى التي شغلها في الدولة مدة سبع عشرة سنة أن يفيد من اختصاصه في الزراعة وأن يتعمقه : كان يتتبع المؤلفات الزراعية ويتعرف إلى الجديد فيها ، يضيف إلى ذلك معرفة نمت وازدادت من تجاربه وخبراته حين طبق معارفه تطبيقاً عملياً في نطـاق بلاده بتربتها ومناخها ، مفيداً في ذلك أيضاً من التقارير التي تلقاها من موظفي الزراعة في وصف المناطق الزراعية المختلفة بسـورية ، حتى غدا من أكبر علماء الزراعة في بلاد الشام .

وفي هذه المرحلة ألف كتبه الزراعية العلمية :

— ألف كتاب الزراعة العملية الحديثة في عام ١٩٢٢ (أعيد طبعه منقحاً عام ١٩٣٥) ، وهو مجموعة الدروس التي ألقاها في مدرسة الفوطة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الزراعية ، ولخص فيها فن الزراعة العامة والخاصة مع تطبيقاته العملية في البلاد السورية .

ـ وألف رسالة مسك الدفاتر الزراعية في عام ١٩٢٣ ، وهي رسالة تحتوي على الدروس التي وضعها طبق برنامج التدريس في مدرسة سلمية الزراعية .

ـ وألف كتاب الأشجار والأنجم المثمرة في عام ١٩٢٤ وهو يبحث في فن زراعة الأشجار والأنجم المثمرة مع تطبيقه على أقاليم بلاد الشام وأشباهها .

ـ وكان الحلقة الرابعة كتاب البقول ألفه في عام ١٩٢٧ وهو يبحث في زرع الخضر في أقاليم بلاد الشام ونظائرها .

ـ ثم أصدر كتاب الدواجن في عام ١٩٣٠ .

وبه ختم كتبه الزراعية التي ألفها لتكون مرجعاً لأرباب الزراعة ولتلاميذ المدارس الزراعية في بلاد الشام .

ـ ولعل خير ما يمكن أن نصف به صنيعه في هذه الكتب كلمة له قالها في تصدير أحد كتبه : « خلاصة ما جاء في الموسوعات الأوربية ، مع خلاصة تطبيقها على ديار الشام وما شاكلها من الديار في إقليمه » .

ـ تهدّى الشهابي ، وهو يؤلف في علوم الزراعة ، إلى المجال الذي أخلص له نفسه ، واستأثر باهتمامه ، وقصر عليه جهده ووكده حتى كاد يكون فيه نسيج وحده ، وهو التأليف في المصطلحات العلمية الزراعية . كان واثقاً من نفسه حين خاض غمار هذه اللجة ، فهو متقن علوم الزراعة متضلع من علوم اللغة العربية ، عارف باللغة الفرنسية وأساليبها .

ـ كان أول كتاب ألفه في هذا الباب : معجم الألفاظ الزراعية في عام ١٩٤٣ ، فكان فتحاً في المصطلحات الزراعية ، إذ تأتّى لصاحبه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن يجمع في نفسه كل الأدوات التي تيسر له النجاح والتفوق في عمله « فلا يظنن أني جمعت في هذا المعجم ألفاظ علوم وفنون لم أدرسها فإن تخرجي مهندساً زراعياً من مدرسة غرينيون الوطنية الزراعية في فرنسا منذ سنة ١٩١٤ ، وإشرافي بضع سنين على بعض المزارع ، وتقلدي منصب مديرية الزراعة فمديرية أملاك الدولة في سورية مدة خمس عشرة سنة ، كافية وحدها للاطلاع على مدلولات معظم ألفاظ المعجم » .

ـ كان الكتاب ثمرة جهد طويل متواصل ، بدأه في نحو عام ١٩٢٣ ، ليخرجه بعد عشرين سنة من التنقيح والتهذيب والمراجعة ، وتضمن الكتاب نحو تسعة آلاف لفظ فرنسي أو علمي في الزراعة والعلوم المتصلة بها ، جعل إزاءها مايقابلها بالعربية ، منها ثلاثة آلاف كلمة عربية على الأقل من وضعه وتحقيقه لم يسبقه إليها أحد من أصحاب المعجمات الأعجمية العربية .

كان نواة الكتاب مقالات نشرها في مجلتي المجمع العلمي العربي بدمشق ، والمقتطف بالقاهرة ، أضاف إليها ماحققه أو وضعه أو اقتبسه في المصطلحات ، « فتألف منها جميعاً هذا المعجم الصغير » وقد آثر أن يلحق بمعظم الألفاظ العربية في المعجم شرحاً علمياً موجزاً للتعريف بها « تسهيلاً للمراجعين » .

ـ وتجلت عبقرية الشهابي في هذا الكتاب واهتدى إلى موهبته في هذا الفن فعني به أكبر العناية ووقف نفسه عليه و « كلٌّ ميسر لما خلق له » .

وعاد يردد النظر في الكتاب ويوالي البحث أربعة عشر عاماً أخرى ليقدّم من جديد في عام ١٩٥٧ طبعة الكتاب الثانية منقحة مزيدة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أصبح بها مجموع كلمات المعجم عشرة آلاف كلمة ، وهو أجـــلّ كتبه وأعلاها شأناً وأبقاها ، به تجلت شخصية الشهابي المجمعي ، حتى أصبح علماً على فن المصطلح الزراعي ، لايذكر إلا ذكر به .

ـ وكان لابد من أن يمضي في الطريق الناهجة التي بدأها ، وأن يوضح الأسس والقواعد التي اعتمدها في وضع مصطلحاته العلمية ، فألف في ذلك كتابه : المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث في عام ١٩٥٥ . (أعيد طبعه منقحاً عام ١٩٦٥) .

ـ وكان كتاب : معجم المصطلحات الحراجية ، الذي نشره في عام ١٩٦٢ خاتمة كتبه في باب المصطلح ، وهو معجم يشتمل على ٩٨٧ مصطلح من مصطلحات الحراج بالانكليزية ، مع مايقابلها بالفرنسية والعربية . وقد ضم إلى المصطلحات التعريف بها .

ـ ولم نشر هنا إلى مقالاته الكثيرة الأخرى التي عرضت لهذا الفن وتحدثت عنه ، « نشرتُ حتى أول سنة ١٩٦٦ في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٦٦ بحثاً ودراسة في اللغة والمصطلحات والعلوم المختلفة » .

ـ لابد لي هنا من أن أقف عند هذا الجهد المعجز الذي قام به الشهابي حتى تحقق له أن يكون المجمعي المنفرد في ميدانه .

لقد ألم في مطلع أيامه ببعض مبادىء العربية ، ولم يتح له التمكن منها والتعرف إلى أسرارها ، صُرف عن ذلك بدراساته المتخصصة في الزراعة ، قال في مقدمة كتابه الأول في الزراعة العملية الحديثة الذي ألفه في عام ١٩٢٢ : « وألتمسُ من القراء معذرة عما يجدونه في الكتاب من ضعف في التعبير ، أو أغلاط لغوية ومطبعية ، فمع اعترافي بقصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الباع في اللغة العربية الكريمة قضت الظروف أن أطبع هذا المؤلف (وهو الباكورة) بعجلة زائدة دون أن أتمكن من عرضه على أرباب اللغة لتصحيح ألفاظه وسبكه بقالب متين » .

وقالت مجلة المجمع العلمي العربي حين قرظت الكتاب : « وعرّب [الشـهابي] بعض الاصطلاحات مما لا يخلو من نظر قليل فيه ، لبعده أحيـــاناً عن مرمى الاشتقاق اللغوي ، والدقة في التعريب ، ولتعبيره بالألفاظ العامية » . ولكن الشـهابي الذي كان يؤمن أن العبقرية كدح طويل ، عكف على دراسة كتب العربية العلمية والأدبية ، وجعـل ذلك ديدنه ووكده ، يطالعها صباح مساء ، حتى انقادت له طيعة ، وكشفت له عن مكنونات سرها ، وعني بالمصطلح العلمي في عـــلوم الزراعة أتم العناية : توفر عليه ، ووقف له جهده ووقته ، وكاد يقصر نفسه على بحثه ، منقباً مدققاً ، « لابد لمن يجشم نفسه وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية من أن يقتصر في عمله على الألفاظ المتعلقة بعلم اختص به ، واطلع على دقائقه » ، « ووضعُ المصطلحات العلمية أو تحقيقُها من أشـــق الأمور وأدعاها إلى الجلد والصبر والأناة والتخصص الواسـع بعـلم واحد ، حتى بفرع من عـلم واحد » ، وظل طوال حياته وفياً لهذه النزعة من التحقيق والتخصص ، يتابع كل مايصدر في موضوع المصطلحات العلمية الزراعية ، ويؤلف فيها ويحاضر ويناقش ويعقب ، وله في هذا الباب مقالات شتى نشرها في مختلف المجلات ، يوضح فيها رأيه ، وينافح عن فكرته .

بدأ ذلك في عام ١٩٢٤ ، ولما انتخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٦ دأب على عمله الدأب الصابر ، لاتزيده الصعاب إلا تصميماً ومضياً ، يقول في كتابه المصطلحات العلمية (ط ٢) : « وأنا أدلي دلوي في الدلاء منذ سنة ١٩٢٤ ، أي منذ أربعين سنة ، فلا أخرج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن علوم الزراعة والمواليد ومصطلحاتها ، وقد أربى ما نشرته في المجلة [مجلة مجمع اللغة العربية] حتى آخر عام ١٩٦٤ على خمسين دراسة وبحثاً في المصطلحات » .

فما ملامح الطريقة التي اعتمدها الشهابي في وضع المصطلح ودافع عنها ؟ اهتدى الشهابي في وضع المصطلح بالنهج الذي سار عليه قدماء النقلة والمؤلفين العرب في نقل علوم يونان وفارس والهند وغيرها إلى العربية ، وأجمل هذا المنهج في النقاط التالية :

١ ـ تحري لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الأعجمي ، فإذا وجد في المعجمات العربية أو الكتب القديمة الموثوق بها كلمة صحيحة عربية أو معربة ، أو كلمة مولدة سائغة لها معنى موافق أو مقارب لمعنى الكلمة الأعجمية ، رجح تلك الكلمة الصحيحة أو المولدة السائغة على غيرها من الكلم ، وإذا وجد في المراجع المذكورة لمدلول الكلمة الأعجمية كلمتين : الأولى صحيحة ، والثانية مولدة ، رجح الأولى على رفيقتها أو ذكرهما معاً .

« وعمدتُ في تحري أصلح الألفاظ العربية إلى الأمهات من كتب اللغة ، ولا سيما المخصص لابن سيده والقاموس المحيط للفيرو زابادي ، فأخرجت منها ، عدداً كبيراً من الكلمات التي تتصل بالعلوم الزراعية ، وكذلك أفردت ما وجدت من مصطلحات في مخطوطة كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، وفي كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الاشبيلي وهو مطبوع في مدريد ، ومخطوطة فضل الخيل لشرف الدين عبد المؤمن الدمياطي ، والفلاحة اليونانية لقسطا بن لوقا ، وعلم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبد الغني النابلسي ، وحسن الصناعة في علم الزراعة لأحمد ندى ، ... والقانون لابن سينا ، ومخطوطة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجزء الخامس من كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري ، ومخطوطة الجامع لصفات أشتات النبات للادريسي ... » .

٢ ـ إذا كان اللفظ العلمي الأعجمي جديداً لامقابل له في لساننا ، ترجمه بمعناه إذا أمكن ترجمته أو وضع له لفظاً عربياً مقارباً بطريق الاشتقاق أو المجاز أو التضمين أو النحت .

٣ ـ إذا تعذر وضع لفظ عربي بالطرق المذكورة لجأ إلى التعريب .

هذه هي أصول المنهج الذي التزمه في وضع المصطلح واهتدى به ، يُضم إليها كثير من التفاصيل والدقائق التي توضح طرق تطبيق هذه الأصول والتي أفصح عن أكثرها في كتابه : المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، وكان يرى أن مجال الترجمة والاشتقاق والمجاز في نقل ألفاظ المعاني الأعجمية إلى اللغة العربية أوسع من مجال التعريب ، أما في نقل أسماء الأعيان الأعجمية فالأمر معكوس . ويجعل الشهابي للترجمة شأناً كبيراً في وضع المصطلح ويدعم رأيه بقوله : « والدليل على ذلك أنني أوجدت في معجم الألفاظ الزراعية نحو ألفي لفظة عربية تدل على نباتات زراعية ما كان يعرفها أجدادنا وليس لها أسماء بلغتنا » .

فإذا تجاوزنا الترجمة ، فإن الشهابي يضع الاشتقاق في المرتبة الأولى في وضع المصطلح ويرى أن باب الاشتقاق واسع ، وأن فيه مجالاً لتنمية اللغة والمصطلح العلمي خاصة . وكان يشتق من أسماء الأعيان اشتقاقه من أسماء المعاني وقد أفاد من ذلك كثيراً في وضع مصطلحاته .

ويأتي المجاز في المرتبة الثانية ، ويذكر الشهابي كثرة المصطلحات التي تمت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بطريقه ، كالقطار والسيارة والمدرعة والطرادة والمدمرة والغواصة والباخرة(١).

أما النحت فقد تخوفه الشهابي ، ولم يلجأ إليه إلا قليلًا في حال الضرورة ، لأن النحت يحتاج إلى ذوق سليم ، وقد يكون ضرره أكبر من نفعه .

ولم يتسع الشهابي في التعريب ، ورأى ألا يؤخذ به إلا إذا تعذر العثور على كلمة عربية قديمة ، تقابل الكلمة الأعجمية ، أو تعذر إيجاد كلمة عربية تفيد معنى الكلمة الأعجمية بطريق الاشتقاق أو المجاز .

— وأصبح المصطلح العلمي شغل الشهابي الشاغل ، كانت تتجلى له مأساة المصطلح العلمي في أمرين :

أولهما : مسلك من آثروا التعريب ، فكانوا يقبلون الكلمة الأجنبية على علاتها لتدخل في أضعاف الجملة العربية ، وكان يرى أن مثل هذا الاتجاه خطر ، إذ أن هذه الكلمات لها دلالتها الاشتقاقية في اللغة الأجنبية ، فالقارىء الأجنبي حين يقرؤها يتبادر معناها إلى ذهنه ، أما القارىء العربي فهو أمام لفظ لايفقه أصوله ، ولو ترجم له اللفظ الأجنبي بدل تعريبه لفهم منه محتواه ومضمونه ، إلى جانب إغناء العربية بمعان جديدة بدل تهجينها بألفاظ أعجمية .

والثاني : تعدد الألفاظ الموضوعة للمصطلح الأجنبي الواحد ، وهو أمر لايقل خطراً عن سابقه ، فاللفظة الأجنبية الواحدة تنقل بألفاظ عربية

---

(١) في كلمة للأستاذ محمد الخضر حسين عرض للمجاز والنقل ومايكسبان اللغة من ثروة ، وما يقومان به في سد حاجات العلوم وما يتجدد من مرافق الحياة ، وأدخل كلمات القطار والبرق والمدرعة (أو الدارعة) والسيارة والغواصة في باب النقل (دراسات في اللغة : ٥ = ١٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مختلفة ، باختلاف العلماء في الطريقة التي يريدون بها نقل اللفظة إلى العربية : أهي الترجمة أم الاشتقاق أم المجاز أم النحت أم التعريب ، وباختلاف أذواقهم اللغوية في اختيار اللفظة الملائمة ، ومثل هذا النهج يؤدي إلى الضياع وبعثرة الجهود ولا بد من أداة حكيمة فعالة للترجيح يمكن الركون إليها .

وقد انتهى الشهابي إلى ضرورة البدء بتأليف معجمين : معجم فرنسي عربي ومعجم انكليزي عربي يشتملان على أصح الألفاظ العربية في المصطلحات العلمية والفنية والفلسفية والأدبية وألفاظ الحضارة ، مما يحتاج إليه في التعليم الثانوي وفي قسم من التعليم العالي على الأقل : تعرَّف الألفاظ العربية فيها تعريفاً علمياً موجزاً دقيقاً ، وتلتزم الحكومات العربية باستعمال ألفاظ المعجمين في إداراتها ومحاكمها ومدارسها الرسمية والأهلية .

وقد استأثرت به هذه الفكرة استئثاراً ملك عليه نفسه إذ وجد فيها وحدها طريق الخلاص من فوضى المصطلح العلمي ، ولهذا مالهج بها وردَّد ذكرها في غير موضع من كتبه ومقالاته .

ـ وكان من أعمال الشهابي في باب المصطلح العلمي ، توليه رئاسة اللجنة التي عهد إليها بوضع المعجم العسكري . وقد اتخذت اللجنة المعجم العسكري الكندي أساساً لعملها ، وصدر المعجم في عام ١٩٦١ ، وكان أوسع معجم عسكري عربي ، اشتمل على نحو خمسة وثلاثين ألف لفظة في كل قسم من قسميه : الفرنسي ـ العربي ، والانكليزي ـ العربي .

ـ لم يفت الشهابي ، وهو المنقب في بطون المعجمات العربية القديمة يسائلها عن طلبته من المصطلح ، أن يتبين تخلفها عن الاستجابة لمطالب العصر العلمية ، على مابذله أصحابها الأقدمون من جهود صادقة في تصنيفها ، وقد دل الشهابي على تسعة أنماط من العيوب ساقها نماذج لما يعتور المعجمات العربية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القديمة من نواقص وعيوب ، مما ألمَّ به وهو يتابع موضوع المصطلح العلمي وقد قصر القول فيما ضربه من أمثلة على أسماء المواليد ، مجال اختصاصه ، لم يجاوزه إلى سواه من ألوان العلوم والمعارف . وخرج من ذلك إلى ضرورة أن يكون المعجم صورة دقيقة لمعارف العصر وعلومه . ولكن ما الطريق إلى ذلك ؟ رأى الشهابي أن العود إلى المعجمات القديمة بالتشذيب والتنقيح لتلبي متطلبات العصر ، من أشق الأمور ، وهو مضيعة للجهد والوقت ، والطريق الصحيح أن نبدأ تصنيف معجم لغوي جديد يشتمل على الضروري من ألفاظ المعجمات القديمة ، وعلى مايستقر عليه الرأي من ألفاظ العلوم والفنون والمخترعات الحديثة ، وأن تعرف جميعها تعريفاً علمياً صحيحاً على مقتضى المعاني في معارف العصر .

* * *

وثمة ميدان آخر لايتصل بالزراعة ومصطلحها ، ألف فيه الشهابي وحاضر ، ذلك هو موضوع القومية العربية ويقظتها وصراعها الاستعمار ، وكنت بينت في مطلع الترجمة أن الشهابي عاش في الآستانة بصحبة أخيه الأكبر الأمير عارف ، وكان الأمير عارف من أشد دعاة القومية العربية حماسة وأكثرهم اندفاعاً وتوقداً ، عمل في سبيل القضية العربية سراً وجهراً في الآستانة ودمشق وبيروت .

وتلقى الأمير مصطفى عن أخيه حب العروبة والعربية ، وكان من شهود اليقظة العربية ، عرف الدعوة العربية في أواخر أيام السلطان عبد الحميد حين كان طالباً في الآستانة ، واطلع على نشاط الشبان العرب في الآستانة وباريس في ظلّ حكم الاتحاديين ، وكان من المؤمنين بالقومية العربية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذا صلة بدعاتها ، فلما وقعت الواقعة بين العرب والترك ، وقام جمال السفاح بفعلته الشنعاء ، كان الأمير عارف الشهابي في مقدمة قوافل الشهداء الذين أعدموا شنقاً ببيروت في السادس من أيار عام ١٩١٦ ، قضى في ربيع العمر وهو ابن سبع وعشرين سنة ، أنضر ما كان شباباً ، وأشد ما كان تضحية وعطاء . وكانت الصورة بليغة التأثير في الأمير مصطفى الذي أحب أخاه أشد ما يكون الحب ونعم بصحبته في الآستانة واستمع إلى أحاديثه في القومية العربية وفي دعوة العرب إلى النهوض ليستأنفوا مجدهم الغابر ، ويقيموا دولتهم الواحدة ، وظل الشهابي يذكر لأخيه فضله وتعليمه ، وأنه معلمه الأول في هذا الباب : علمه حب العروبة ، وعلمه حب العربية ، صرح بذلك في الإهداء الذي صدر به كتابيه : معجم الألفاظ الزراعية ، والقومية العربية .

ولما قامت الحكومة العربية بدمشق عام ١٩١٨ أصبح الشهابي أحد أعضاء جمعية (العربية الفتاة) ، وتوالت الأحداث سراعاً ، وشاهد الشهابي المستعمرين الفرنسيين وهم يطيحون بآمال العرب وينزلون بالبلاد صنوف الشرور والآثام ، وتكشفت له نياتهم الخبيثة بكل شناعتها حين سافر إلى باريس عام ١٩٣٦ عضواً في الوفد السوري المفاوض .

كان مؤمناً بالقومية العربية الايمان الراسخ « .. نهضتنا الحديثة يجب أن تبنى على أساس القومية العربية الخالصة ... ولا حياة لنا إلا بالتشبث بالنزعة القومية الصحيحة المبنية على احترام السلف الصالح والإشادة بمجده وعظمته ، والتمسك بكل ما أبقاه لنا من تراث علمي وأدبي يصلح لهذه الأيام ».

وقد خلّف الشهابي في هذا المجال كتابيه في الاستعمار وفي القومية العربية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ألف كتاب الاستعمار في عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ ، وبحث فيه تاريخ الاستعمار وأساليب المستعمرين ، وطرائقهم في استغلال الشعوب المستعمرة ثم أفرد البلاد العربية بدراسة خاصة ، وإذا كان الشهابي قد ألقى كتابه محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، فإنه كان قد بدأ التفكير في تأليفه منذ سنة ١٩٣٦ وله مقالة بعنوان (الاستعمار الأوربي للعالم الشرقي) كتبها في عام ١٩٤٨ حين كان محافظاً للاذقية ، تضمنت بذور ما جاء في كتاب الاستعمار .

ثم أصدر كتابه في القومية العربية عام ١٩٥٩ (أعيد طبعه عام ١٩٦١) وكان قد ألقاه محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة وبدأه بالحديث عن القومية عامة وعواملها ليخلص من ذلك إلى الحديث عن القومية العربية ونشوئها ويقظتها ، ومظاهر نضالها في العهد العثماني ، ثم في ظل الاستعمار الغربي ، وقد عرض الشهابي لتعريف العربي فذهب إلى أنه من تكلم العربية وأراد أن يكون عربياً ، ثم لخص مضمون دعوة القومية العربية التي بسطها في كتابه بقوله في الخاتمة : « ويتضح من ذلك أن القومية العربية ليست فلسفة قومية ضيقة ، ولامذهباً اجتماعياً محدوداً ، قوامه الأثرة أو التعصب أو البغضاء ، بل هي فلسفة اجتماعية مثالية بناءة تقدمية ، تدعو كل عربي إلى محبة أمته العربية ، ووطنه العربي ، وإلى الاعتزاز بماضي هذه الأمة ، وإلى العمل التقدمي لحاضرها ولمستقبلها ، كما تدعو إلى محبة الإنسانية ، وإلى خير البشرية ، وإلى حق كل شعب على الأرض بتقرير مصيره ».

ويحس قارىء كتابيه في الاستعمار والقومية أن قيمتها الأولى تكمن في أن مؤلفها كان أحد شهود الحركة القومية أيام يقظتها ، فهو يتحدث حديث عيان ومشاركة ، أو حديث سماع لايقل صدقاً عن العيان ، « وكثير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من المعلومات التي اشتملت عليها المحاضرات مقتبسة من مذكراتي أو معتصرة من ذاكرتي ، فقد شهدت في الشام مولد عقيدتنا القومية المنظمة في أوائل القرن الحاضر ، واتصلت منذ ذلك الزمن إلى يومنا هذا بمعظم زعمائها من شهداء وأحياء ، فحقّ علي أن أدلي دلوي بين الدلاء وأن أطرح رأبي في جملة الآراء » .

ومن هنا فإن عبارة المؤلف في كتابيه كانت تعنف وتشتد ، وهو يذكر أحداثاً في العهد العثماني شاهدها ولابسها ، كان كره الأتراك العثمانيين يتجلى في سطوره ، وكيف ينسى لهم أنهم أرادوا وأد القومية العربية ، ومحو اللغة العربية .« أما عهد الأتراك العثمانيين فقد كان في الجملة أسوأ عهد مر على العربية وآدابها : اتخذوا اسطنبول عاصمة لهم وجعلوا التركية وحدها لغة حكومتهم الرسمية حتى في بلادنا العربية ، وكان ذلك ضربة أصابت لغة القرآن في الصميم » .

ويتصل بهذا الميدان العلمي ماقام به الشهابي من محاضرات ومقالات وأحاديث تناول فيها موضوعات قومية وأدبية وفلسفية وفنية ، فقد كان رحمه الله جم النشاط ، كثير القراءة ، لم يحبس نفسه على دراسة العلوم الزراعية ووضع المصطلح العلمي ، على شدة تعلقه بها ، بل فسح لها فقرأ أمهات الكتب العربية قراءة درس واستفادة ، وتابع مسيرة الأدب العربي الحديث منذ أوائل هذا القرن ، وساعده اتقانه اللغة الفرنسية فطالع كتب أعاظم الأدباء الفرنسيين ، وأفاد من أفكارها وصورها البيانية ، وتجلت آثار ذلك في مقالاته : أفكاراً وأسلوباً ، بل إنه يصرح لك أحياناً بالمطالعات التي أوحت إليه مقالته ، فعله حين كتب مقالة : العلم والفلسفة والأخيلة الشعرية ، أو حين ترجم بتصرف مقالتي المصنفات والانتقام . وقد ضم الشهابي مجموعة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه المقالات في كتاب سماه (الشذرات) نشره في عام ١٩٦٦ .

أيها الحفل الكريم :

قال ابن مناذر : سألت أبا عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال : ما دامت الحياة تحسن به . ولم أجد صفة تصدق على فقيدنا الشهابي صدق هذه الجملة ، فهو يحب الكتاب حباً جماً يستبد به ، وهل ننسى أن من جليل أعماله بناءه داري الكتب في حلب واللاذقية حين كان محافظاً لهما ، استجابة لهذه النزعة الأصيلة في نفسه ، وهو دؤوب على الدرس والمطالعة لايسأم العمل ، يتبين ذلك جلياً واضحاً من نظر في كتبه وتابع مقالاته ، إن مؤلفاته في الثلاثينات دونها في الأربعينات أو الخمسينات مادة وأسلوباً . ويروعك وأنت تنظر في طبعتين لكتاب من كتبه هذا التدقيق في الأسلوب ، وهذه الزيادات والإضافات والتصحيحات . كان حبه للمعرفة وإيثاره جانب الحق وتعلقه بنصاعة البيان العربي تدفعه أن يعيد النظر فيما ألف وكتب ، ويدقق فيه وينقح ويستكمل النقص ، يساعده على ذلك كثرة مطالعاته وتنوعها ، وأكتفي بمثل واحد أسوقه لأدلل على ما قدمت ، ذلك هو كتاب معجم الألفاظ الزراعية ، فأنت حين توازن بين طبعتيه ، تجد المؤلف وقد صارحك بأنه عدل في طبعته الثانية عن بعض المصطلحات العربية إلى ماهو أصلح منها ، ونقح بعض مواد الطبعة الأولى وشرح بعضها بإيجاز ، وأضاف نحو ألف مادة جديدة ، واستكثر من المصادر التي رجع إليها ، أما حديثه عن طريقته في وضع المصطلح فقد تبدل تبدلاً تاماً .

كان الشهابي مطبوعاً على التنقيح والتثقيف في مادته وفي أسلوبه ، يؤثر في كتابته الأسلوب العلمي الذي يجنح إلى المساواة بين المضمون والعبارة ، إلا في مقالاته الأدبية التي لابد من أن ينسق فيها بين المضمون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأسلوب ، وكان يضمن أحياناً مقالته الأدبية أبياتاً من الشعر يزين بها كلمته . وقد ترد في عبارته الفاظ ندر استعمالها وهي عذبة على السمع فآثرها ليغني لغة الكتابة ، أو لتحل محل الالفاظ الاعجمية الدارجة. وهو أثر من آثار حبه العربية، وتعلقه بها .

— ولكن الشهابي لم ينج ، بل لعله ما أراد أن ينجو من غلبة فنه الزراعي عليه ، تتراءى لك وأنت تقرأ مقالة له أدبية ، كلماته الزراعية الحلوة ، يستعين بها وهو يعرض لصفة الطبيعة وما تجملت بـه من أنواع النبات وصنوف الحيوان ، بل إني أراه كان يتعمد ذلك ، يدفعه إليه ما كان يمر به من أغلاط الكتاب أو جهلهم حين يعرضون لصفة الطبيعة ، وفي مقالته (أدباؤنا والألفاظ العلمية) إشارة إلى ذلك بينة . وأمر ثان كان يغريه باصطناع الألفاظ العلمية في مقالاته الأدبية وهو أن يثبت بالعمـل طواعية اللغة العربية على تمثل هذه الكلمات ، إنه لايريد للكلمات العلمية أن تظل حبيسة الكتب بل يريد لها أن تخرج إلى الفضاء الواسع ودنيـا الناس ، تتداولها الألسنة وتجـــري بها الأقلام ، فكأنما كان يرمي من مقالاته الأدبية أن تكون نماذج حية لمرونة اللغة العربية وتقبلها الألفاظ العلمية الدقيقة أحسن قبول .

* * *

هذه لمع تناولت بها جوانب من حياة فقيدنا العالم المجمعي ، أهلتـه لتبوؤ تلك المكانة العالية الرفيعة في أوساط العلماء واللغويين ورشحته لمناصب علمية شغلها بكفاية ومقدرة .

انتخب الفقيد في سنة ١٩٢٦ عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وانتخب بعدها في سنة ١٩٤٨ عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ثم انتخب سنة ١٩٥٤ عضواً عاملاً فيه . وانتخبه المجمع العلمي العراقي في سنة ١٩٦١ عضواً مراسلاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي ١٤ تموز ١٩٥٦ انتخب نائباً لرئيس المجمع العلمي العربي .

وفي ١٥ تشرين الأول ١٩٥٩ انتخب رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق لمدة أربع سنوات خلفاً للرئيس الراحل خليل مردم ، فكان ثالث رئيس للمجمع ، بعد الأستاذين الجليلين محمد كرد علي وخليل مردم ، ثم جدد انتخابه لرئاسة المجمع مرة ثانية وثالثة . ومنحته الجمهورية العربية السورية جائزة الدولة التقديرية في ٨ تشرين الثاني ١٩٦٦ فكان أول من منح هـذه الجائزة .

★ ★ ★

عرفته ، رحمه الله ، في عام ١٩٦٣ ، وكنتُ إذ ذاك وزيراً للتربية ، وكان المجمع مرتبطاً بها : جاء يحدثني في أمور المجمع ، وما ينتظره له وكيف تتحقق وحدة المصطلح العلمي ، كان بادي النشاط ، عالي الهمة ، وكأنه لا يأبه لما ألمَّ به من مرض ، والتقينا بعد ذلك مرات ، وكنا معاً من خطباء الحفل الذي أقامته وزارة الثقافة والإرشاد القومي في التاسع والعشرين من نيسان ١٩٦٤ على مدرج جامعة دمشق ، تأبيناً للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد . كانت كلمته عن (العقاد في مجمعي اللغة) وكانت كلمتي عن (العقاد الناقد) ، وسافرت من بعد إلى الجزائر ، وكان يسعدني أن أقرأ له مقالاته في المصطلح ، ذلك الموضوع الذي نذر له نفسه ، فجوّد فيه ماجوّد حتى بلغ الغاية ، وظل حياته كلها مشرع القلم ، يدعو الدعوة الحارة لتكون العربية لغة العلم في الجامعات ، ويسعى السعي الحثيث لإنجاح مشروعه في توحيد المصطلح العلمي حتى وافاه الأجل ، وهو وراء مكتبه ، في الثالث عشر من أيار سنة ١٩٦٨ ، وقد أتم آخر مقالة له (في النسب إلى كيمياء وأشباهها) . وقد أوصى أن ينقش على قبره :

أم اللغات قضيت العمر أخدمها فهي الشفيعة في غفران زلاتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فليرحم الله أبا ليس الرحمة الواسعة العميقة جزاء ما قام بـــه في خدمة العربيـة .

★ ★ ★

يطيب لي وأنا في ختام كلمتي أن أنوه بما لقيه مجمع اللغة العربية من رعاية السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية الذي تفضل فاستقبل رئيس المجمع والمجمعيين في التاسع عشر من أيار سنة ١٩٧٣ ، وتحدث إليهم عن مكانة اللغة العربية والتراث في حفظ وحدة الأمة العربية ، واتصال حاضرها بماضيها المشرق ، وأكد لهم تصميم القطر على الالتزام بالعربية في التدريس في كل مراحل التعليم ، لأنها المقوم الأساسي في قيام النهضة العربية وأبدى السيد الرئيس تقديره لرسالة المجمع وعمل المجمعيين في حماية العربية وتنميتها وإحياء تراثها ، واستمع إلى ما عرضه رئيس المجمع من شؤون المجمع وأمر بدعم ميزانيته وتوسيع ملاكه وبناء مقر له جديد[1] ، يوازي مكانته العلمية ليأتي عمله في مستوى المهام الكبيرة المنوطة به .

أشكر لكم جميعاً تفضلكم بالحضور

والسلام عليكم

---

(١) خصصت محافظة مدينة دمشق قطعة أرض في حـــي المالكي بجانب ثانوية محمد بن القاسم الثقفي ليشيد عليها مبنى مجمع اللغة العربية بدمشق . وقام وزير التعليم العالي بارساء حجر الأساس في التاسع عشر من تشرين الثاني ١٩٧٥ ، في حفل اقيم تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية العربية السورية ، تقديراً لمكانة المجمع ، وتنويهاً برسالته في خدمة العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net